مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(رومية ١٣:١١–١٤؛ ١٤:١–٤)

يا إخوةُ إنَّ خلاصَنا الآنَ أقربُ ممَّا كان حين آمنَّا* قد تناهى الليلُ واقتربَ النهارُ فلندَعْ عنَّا أعمالَ الظُلمةِ ونلبَسْ أسلِحَةَ النور* لنَسلُكَنَّ سلوكاً لائِقاً كما في النهار لا بالقُصوفِ والسُكرِ ولا بالمضاجِعِ والعَهر ولا بالخِصامِ والحَسد* بل البسوا الربَّ يسوعَ المسيحِ ولا تهتمُّوا بأجسادِكم لقَضاءِ شَهواتِها* مَن كانَ ضعيفاً في الإيمانِ فاتَّخِذوهُ بغيرِ مباحثةٍ في الآراء* مِنَ الناسِ مَن يعتقِدُ أنَّ لهُ أن يأكُلَ كُلَّ شيءٍ. أمَّا الضَّعيفُ فيأكُلُ بُقولاً* فلا يَزدَرِ الذي يأكُلُ من لا يأكُلُ ولا يدِن الذي لا يأكُلُ مَن يأكُلُ فإنَّ اللهَ قدِ اتَّخذهُ* مَن أنتَ يا مَن تدينُ عبداً أجنبيًّا. إنَّهُ

أحد الغفران

في التقليد الليتورجي، يُدعى هذا الأحد «أحد مرفع الجبن» أو «أحد الغفران». التسمية الأولى مستمدّة من كوننا، اليوم، نرفع عن موائدنا الأجبان وما يشبهها لنخوض، بدءاً من الغد، مسيرة الصوم بالامتناع لا عن اللحوم فقط، بل عن السمك والحليب وكل مشتقّاته. التسمية الثانية ترتبط مباشرةً بالقراءة الإنجيلية التي تُتلى على مسامعنا اليوم، في القداس الإلهي: «قال الربّ: إن غَفَرتُم للناسِ زلاّتهم يغفِر لكم أيضاً أبوكم السماوي» (متى ٦: ١٤). على عتبة الصوم الكبير، إذاً، دعوة على لسان الربّ يسوع إلى أن نغفر بعضنا لبعض. هذا، بطبيعة الحال، أمر مطلوب منّا في كل لحظة. كما اننا مدعوون مع بدء الصوم، أن نكثّف استعدادنا للغفران، أن يكون الغفران هو السراج الذي نسلك به خلال هذه الأيام المباركة. والحقّ أنّ النصوص الليتورجية الصياميّة، لمن يتتبعها، لا تكلّ عن التشديد على أنّ معنى الصوم لا يستنفده الامتناع عن الأطعمة. فالإمساك عن اللحم والجبن إن هو إلاّ وسيلة نروّض بها جسدنا ونفسنا، حتى نصبح أكثر شفافيةً، أكثر هدوءاً، أكثر تركيزاً، وتالياً أكثر قدرةً على الإقبال على الصلاة وعلى الغفران. فالكثيف النفس من الصعب عليه أن يغفر. والغضوب من الصعب عليه أن يغفر. لذا، لا بدّ من وسائل نطرح فيها الكثافة والغضب. وهذه الوسائل لا تكون نفسيّة فقط، بل جسدية أيضاً. فكلّ من تمعّن في ذاته، عرف مدى ارتباط النفس والجسد فينا. النفس والجسد ليسا مرتبطين فحسب، بل هما أيضاً متداخلان مثل الحديد متى اختلط بالنار. ما يصيب الجسد ينعكس على النفس. وما يلمّ بالنفس يترك آثاراً في الجسد. هذه خبرة قديمة لم تزدها المعرفة الطبيّة العلميّة إلاّ ترسّخاً. فالأطباء، في عصرنا، يعرفون مدى التداخل بين جزئنا المرئيّ وجزئنا غير المرئيّ. وربّ مرض نسمع اليوم أن لا سبب عضوي له، بل أنّ أسبابه نفسيّة. الصوم، إذاً، كما تقدّمه لنا الكنيسة، يستند إلى خبرة قديمة جداً هي خبرة الارتباط الوثيق والتداخل بين النفس والجسد.

العدد ٩/٢٠٠٩
الأحد ١ آذار
أحد مرفع الجبن
تذكار القديسة البارة
في الشهيدات أفدوكية
اللحن الرابع
إنجيل السَحَر الرابع

لِمولاهُ يثبُتُ أو يَسقُطُ. لكنَّهُ سيُثبَّتُ لأنَّ اللهَ قادِرٌ على أن يُثبِّتَهُ.

الإنجيل

(متى ٦:١٤-٢١)

قال الربُّ إن غفَرتُم للناس زلاَّتِهم يغفِرْ لكم أبوكم السماوي أيضاً* وإن لم تغفِروا للناسِ زلاَّتِهم فأبوكم أيضاً لا يغفِرُ لكم زلاَّتِكم* ومتى صُمتم فلا تكونوا مُعبّسين كالمرائين. فإنَّهم يُنَكّرون وجوهَهم ليظهروا للناس صائمين. الحقَّ أقولُ لكم إنَّهم قد أخذوا أجْرَهم* أمَّا أنتَ فإذا صُمتَ فادهَنْ رأسَكَ واغسِلْ وجْهَك لئلاَّ تظهرَ للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخِفْية. وأبوك الذي يرى في الخِفْيةِ يُجازيكَ علانيةً* لا تكْنِزوا لكم كُنوزاً على الأرض حيث يُفسِدُ السوسُ والآكِلَةُ ويَنْقُبُ السارقون ويسرِقون* لكن اكنِزوا لكم كنوزاً في السماءِ حيث لا يُفسِدُ سوسٌ ولا آكِلةٌ ولا يَنْقُبُ السارقون ولا يسرقون* لأنَّهُ حيث تكون كُنوزُكم هناك تكونُ قلوبُكم.

ولئن كان الغفران مسألةً ترتبط بالنفس، إلاّ أن صوم الجسد يقمع ثورة الشهوات ويُحلّ الهدوء ويجعل الإنسان أكثر قدرةً على الغفران.

«إن لم تغفروا للناس زلاّتهم، فأبوكم أيضاً لا يغفر لكم زلاّتكم». للوهلة الأولى، يتبدى هذا الكلام صعباً ومخالفاً للمنطق. إذ بالاستناد إلى أيّ مبرّر يجعل الآب السماوي غفرانه لنا مرتبطاً بغفراننا نحن للناس الآخرين؟ أليست طاقتنا على الغفران محدودة، فيما طاقته هو على الغفران لا تحدّ؟ أمن الممكن أن يجهل الله، وهو خالق طبيعتنا، كلّ ما يعتري هذه الطبيعة من ضعف يجعلنا، في كثير من الأحيان، غير مسارعين إلى الغفران الفوري؟ ممّا لا شك فيه أنه من الممكن توسيع لائحة الأسئلة التي من هذا النوع إلى ما لا نهاية. ولكنّ من يفرط في طرح مثل هذه الأسئلة يكون قد أخطأ مرمى النص الإنجيلي. فهدف قول يسوع هذا ليس وضع أطروحة لاهوتيّة في صفات الله وصفات الإنسان بغية الخروج باستنتاج عن مدى قابليّة كل منهما للغفران. عبقريّة قول يسوع هذا تكمن في أنّه يزيل المسافة بين الله والإنسان ويؤكّدها في الوقت عينه. إنّه يزيل المسافة، من جهة، لأنه يجعل من الإنسان الآخر الذي يحتاج إلى غفراني الأداة التي يكلّمني الله بواسطتها. هذا معنى ربط الله غفرانه لنا بغفراننا نحن للإخوة. الله، إذاً، يسكن في الإخوة، يوحّد ذاته بهم، بحيث يضحي عدم غفراننا زلاّتهم جريمةً في حقه هو. لكن قول يسوع، من جهة أخرى، يؤكّد المسافة. فالله، رغم توحيده ذاته بالإخوة، يظل هو الديّان، وتبقى له الكلمة الفصل. أن يربط غفرانه بغفراننا معناه أنّه صاحب الكلمة الأخيرة في هذه العلاقة الثلاثيّة التي أقطابها هو ونحن والقريب. طبعاً، كونه صاحب الكلمة الأخيرة، هذا لا ينتقص من حريتنا. فكل فرد منا حرّ في أن يغفر أو لا يغفر. لكنّ الله يستقبح حريّة لا تؤدي بنا إلى الاتّحاد به من طريق الغفران. بهذا المعنى، الآب السماوي ليس حيادياً حيالنا، ولا ينتظر منا أن نكون حياديين. الله ليس تجربةً في مختبر نتعامل وإيّاها تعامل الحياد العلمي الموضوعي، بل هو، بحسب كلمة الكتاب المقدس، «نار آكلة». والنار لا تعرف أنصاف الحلول. لذا، هو يستحثّنا هنا على التعامل بجدية مع استعداده لأن يغفر لنا خطايانا. وهذه الجدّية لا يمكن أن تكون أقل من أن نغفر نحن للآخرين زلاّتهم مُعرضين عن كل ما يصدر عنهم من هفوات.

لقد رتّبت الليتورجيا أن يُستهل النص الإنجيلي المقروء علينا بفكرة الغفران وأن يُختتم بفكرة الكنز: «لا تكنِزوا لكم كُنوزاً على الأرض حيث يُفسِدُ السوسُ والصَّدأ وحيث ينقُبُ السارِقونَ ويسرِقونَ. بل اكنِزوا لكم كُنوزاً في السماءِ حيث لا يفسِدُ سوسٌ ولا صدأٌ وحيثُ لا ينقُبُ سارِقونَ ولا يسرِقونَ» (متى ٦: ١٩-٢٠). المنطق الذي يتبنّاه يسوع، في قوله هذا، هو أنّ كل شيء على الأرض إلى زوال، وأنّه، تالياً، من الأفضل أن يكون كنزك في السماء، لأنّ كنوز السماء لا تزول. بيد أنّ هذا الكلام لا يستتبع أن يكون الإنسان لا مبالياً إزاء شؤون هذا العالم وشجونه. المهم هو مكان القلب: «حيث يكون كنزُكَ هناك يكون قلبُكَ أيضاً» (متى ٦: ٢١). فإذا كان قلب الإنسان في السماء، لأنّ كنزه هناك، أمكنه أن يُطل على

تأمل

«فلندَعْ عنَّا أعمالَ الظلمةِ ونلبَسَ أسلِحَةَ النور... بل البَسوا الربَّ يسوعَ المسيحِ ولا تهتمُّوا بأجسادِكم لقضاءِ شهواتها» (رو ١٣: ١٢-١٤).

بعد أن خلع عنّا الألبسة الشريرة، يلبسنا شيئاً جديداً أسمى بكثير من الأعمال، وهو الرب يسوع المسيح. فعندما كان يُكلّمهم عن الشرّ كان يذكر أعمالاً، ولكن عندما يتكلّم عن الفضيلة لا يذكر أعمالاً بل أسلحة، مبرهناً هكذا أن الفضيلة ترشد صاحبها إلى كلّ أمانة، إلى كل بهجة. وهو لا يتوقف عند هذا الحد، بل يذهب في كلامه إلى ما هو أعظم وأرهب بكثير عندما يعطينا الربَّ نفسه لباساً، الملكَ نفسه، لأن الذي يلبس المسيح يحوي الفضيلة كلّها.

عندما يقول «البسوا» يقصد لباس المسيح من كلّ جانب كما يقول في مكان آخر: «إن كان المسيحِ فيكم» (رو ٨:١٠)، وأيضاً «ليحلّ المسيح في قلوبكم» (أف ٣: ١٧)، أي إنه يريد أن تكون نفسنا بيتاً له، أن ترتديه رداءً يحوطنا، أن يكون لنا كل شيء من الداخل ومن الخارج، لأنه هو كمالنا طالما هو «ملء الذي يملأ الكلّ في الكلّ» (أف ١:٢٣). هو الطريق والرَّجُل والعريس لأنه يقول: «لأنّي

شؤون الأرض ويعنى بها على كثير من الحرية، أي من دون أن يصبح مستغرقاً فيها، فتنهكه وتستنفذه. قول يسوع، إذاً، لا يسعى إلى إلغاء أشواق الإنسان، كما رمت إليه بعض الفلسفات قديماً وحديثاً، بل يعترف بوجود هذه الأشواق وبأهميّتها. لكنّ يسوع يحضّنا على أن تكون غاية شوقنا، التي منها نستقي معنى وجودنا – وهذا معنى القلب في النص – أمراً سماوياً لا يزول. في هذا الصدد، رأى معلّمو الكنيسة أنّ طاقة الإنسان على الشوق أكبر بكثير من أشياء هذا العالم التي يشتاق إليها، ما يدلّ على أن ثمّة شيئاً في الكيان الإنساني ينطق بأنّ الله هو غاية الشوق الأخيرة.

دعوة الصائمين، إذاً، أن يغفروا ويستغفروا، وأن يتوقوا إلى هذا الملكوت الذي أُعطي لهم أن يتذوّقوا بعض حلاوته في زمن الصوم. بهذا المعنى يكون الانقطاع عن المآكل البائدة الفانية وعداً بالكنوز السماوية.

الخفاء

المقطع الإنجيلي الذي يُتلى على مسامعنا اليوم (متى ٦: ١٤-٢١) هو جزء لا يتجزأ من النص الإنجيلي (متى ٦: ١-٢١) حيث يعطي الرب يسوع موقفه من أعمدة البر الثلاثة: الصدقة والصلاة والصوم. هذه الفضائل الثلاث بحسب الكتاب متلازمة، بل هي لا تنفصل عن بعضها، ويجب أن تتوافر جميعها في الإنسان لكي يُعتبر باراً. هذه الصفات هي التي حاول أن يبرزها الفريسي، الذي سمعنا عنه منذ ثلاثة أسابيع (لو ١٨: ١-١٤)، لكي «يبرر» نفسه أمام الله، أي لكي يظهر «باراً». إلا ان تكبّره ومباهاته بفضائله حرماه من نعمة البرارة التي حصل عليها العشار بتواضعه وخفره و«نزل إلى بيته مبرَّراً دون ذاك» (لو ١٨:١٤).

التواضع والخفر هما ما يميزان أيضاً الصدقة والصلاة والصوم بحسب كلام الرب يسوع، إذ يجب أن تكون صدقتك وصلاتك وصومك في الخفاء و«أبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية» (متى ٦:٤و٦ و١٨). البعض يفسر الخفاء ويحصره بأن المهم أن لا يرى الناس، أو أن لا نتباهى لكي نظهر للناس أننا صائمون أو نفعل صدقة أو اننا نصلّي. «فمتى صنعت صدقة فلا تصوّت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع وفي الأزقّة لكي يمجَّدوا من الناس... ومتى صُمتم فلا تكونوا عابسينَ كالمُرائين. فإنهم يغيّرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين»(متى ٦: ٢ و١٦). بكلام آخر، هؤلاء يحصرون موضوع الخفاء بـ«بيني وبين حالي». لكن هل هذا فقط هو الخفاء؟ قراءةٌ ممعنة في النص تظهر ان الخفاء هو أبعد من حصرها بذات الإنسان. فعندما يتحدث الرب عن الصدقة يضيف: «وأمَّا أنت فمتى صنعتَ صدقةً فلا تُعرِّف شمالك ما تفعل يمينك» (متى ٦:٣). مَن الذي سيُعرِّف شمالي ما صنعت يميني إلاَّ أنا؟ إذاً حتى فكرة «بينك وبين نفسك» مرفوضة. هكذا فعل الفريسي عندما صلّى لكي يُظهر نفسه باراً فقال ممتّناً الله «وأعشِّر كل ما أقتنيه» (لو ١٨: ١٢). إذاً الخفاء ليس «بيني وبين نفسي» وان لا يرى أحد، بل «بيني وبين الله فقط»، والمهم أن يرى الله وحده، لا الناس ولا أنا. عندها «أبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية» في ملكوته أمام الجميع. الفحوى

خطبتكم لرجل واحد لأقدّم عذراء عفيفة للمسيح» (٢ كور ١١:٢) هو الأصل أو الجذر، هو شراب وطعام وحياة ورسول ورئيس كهنة ومعلّم وأب وأخ ووارث وشريك في قبرنا وصليبنا «لأنّا دُفنّا معه» و«إن كنا متّحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته» (رو٦: ٤–٥)، ووسيط وشفيع عند الآب «الذي أيضاً يشفع فينا» (رو ٨:٣٤) وبيت ومساكن «يثبت فيّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦) وصديق «أنتم أحبّائي» (يو ١٥: ١٤) وأساس وحجر الزاوية ونحن أعضاء جسده وحقله وكرمته.

فلا نُبعد عنا أيَّ شيء يمكن أن يجمعنا به. هذا من شيمة الذين يحبّون كثيراً. لك إذاً أن تستجيب، وبعد نهوضك من النوم أن تلبس المسيح، وبعدها أن تُخضع جسدك له. هذا ما أراد أن يشير إليه في الآية: «ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات»، أي لا تهتمُّوا بالجسد من أجل إشباع شهواتكم. فكما أن الشرب لا يعيق بل السكر، والزواج لا يعيق بل الزنى، كذلك الاهتمام بالجسد لا مانع منه بل المانع هو الاهتمام بالجسد من أجل إشباع شهواتنا، الأمر الذي يتخطى الحاجة الطبيعية.

القديس يوحنا الذهبي الفم

نفسه ينطبق على الصلاة والصوم في الخفاء. المهم أن تضع فضيلتك أمام الله ليراها وحده وتنسى أنت أمرها لأنه هناك خطر حين تذكرها بينك وبين نفسك أن تقع في التكبُّر فتقول في ذاتك كما قال الفريسي في صلاته «أللهم أنا أشكرك أني لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة ولا مثل هذا العشار» (لو١٨:١١). قد تكون في غرفتك تصلّي لوحدك، ولكنك تقول في ذاتك أنا أفضل من الجالسين في صالة البيت. هذه ليست صلاة في الخفاء. كما انك قد تعيّر في داخلك مَنْ لا يصومون. هذا ليس صوماً في الخفاء.

لا بد من ملاحظة أخيرة وهي ان الرب يسوع ينهي حديثه عن الصدقة والصلاة والصوم بقوله: «لا تكنِزوا لكم كنوزاً على الأرض... لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء» (متى ٦: ١١–٢٠). الكنز هو أن نصلّي ونصوم ونتصدّق، والأفعال الثلاثة لا تنفصل عن بعضها. إنها أعمدة البر الثلاثة، وإذا فَقَدَ البناء أحد أعمدته سقط. لذا فإن الكنيسة تشدِّد على تلازم الثلاثة في موسم الصوم الكبير المقدس. إلى جانب الصوم تتكثف الصلوات كل يوم، والمؤمنون مدعوون للمشاركة فيها «هذا الجنسُ فلا يخرجُ إلاَّ بالصلاةِ والصوم» (متى ١٧: ٢١). كما ان الكنيسة تدعو في هذا الموسم المبارك إلى ممارسة فضيلة الإحسان والرحمة. فقد وعت الكنيسة منذ نشأتها وحين نظّمت أطر الصيام ان أحد أوجه الامتناع عن بعض المآكل هو توفير بعض المال ليتم توزيعه على الفقراء. نحن نفتقد هذا الوجه الأساسي في الصوم في أيامنا الحاضرة. فمعظمنا يتلهى بالتفنن بتحضير المآكل الصيامية وقد تكلِّف في كثير من الأحيان أكثر من الطعام الزفري. البساطة هي عنوان طعام الصوم فنوفر المال لنعطيه للفقراء فيكون لنا كنزٌ في السماء.

محاضرات

بمناسبة الصوم المبارك تدعو رعية كنيسة القديس نيقولاوس – الأشرفية لحضور سلسلة المحاضرات التالية التي ستقام عند الساعة السابعة من مساء كل خميس من أسابيع الصوم المبارك، بعد صلاة النوم الكبرى.

+ الخميس ٥ آذار ٢٠٠٩

«الرسول بولس رجل الله بامتياز» لقدس الارشمندريت توما (بيطار)

+ الخميس ١٢ آذار ٢٠٠٩

«الصوم وتجارب الرب على الجبل» لقدس الأب منيف (حمصي)

+ الخميس ١٩ آذار ٢٠٠٩

«في الموت والقيامة» لقدس الارشمندريت أفرام (كرياكوس)

+ الخميس ٢٦ آذار ٢٠٠٩

«البشارة بدء حياتنا في المسيح» للأم مريم (زكا)

+ الخميس ٢ نيسان ٢٠٠٩

«الصلاة القلبية» لقدس الارشمندريت بندلايمون (فرح)

+ الخميس ٩ نيسان ٢٠٠٩

صاحب السيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb